الراحل محمد محدة.. رجل يجمع بين الدين والدنيا

مرت عشر سنوات على رحيل محمد محدة، وبهذه المناسبة اجدني اتوقف مضطرا لعرض جانب من حياته واعماله باعتباري احد الذين عايشوه وصادقوه وقاسموه أكل الحلوة والمرة، فاليكم سيرة الاستاذ من خلال ما رأيت وما رويت:



بقلم حسان الجيلاني

حياته ونشأته: ولد الدكتور محمد محدة بقرية (أميه ونسه) بالوادي خلال سنة 1955 من أسرة متوسطة الحال، إذ أن والده كان فلاحا، ويؤم الناس للصلاة في مسجد القرية. أسرته تنتمي إلى عائلة (المحايدة) وهو عرش كبير استقر منذ القدم بمناطق عديدة من الوادي وخاصة (بوادي العلندة)، و(أميه ونسى).

تلقى تعليمه الابتدائي بالقرية، كما أنه حفظ القرآن الكريم وبعض مبادئ الشريعة الإسلامية، في سنة 1968 التحق بالمعهد الإسلامي بالوادي ليتخرج منه سنة 1975 وهو يحمل بكالوريا التعليم الأصلي، وليلتحق في السنة الجامعية 75/1976 بجامعة قسنطينة كلية الحقوق، وكانت الجامعة الوحيدة بالشرق الجزائري، وقد شهدت نهضة علمية كبيرة في ذلك الوقت، وكان الحصول على غرفة بالحي أمرا عسيرا فالتجأ محدة في بداية حياته إلى الإقامة بالفنادق خاصة فندق (سبلنديد) الذي كان موجودا بالقصبة والذي لا تتوفر فيه أدنى شروط الحياة، ومنه تعرف على الأستاذ المرحوم (سعدي الطاهر حراث) الذي كان مديرا لثانوية ابن باديس والذي كان يدرس بالسنة الأولى حقوق، فأنقذه من مغبة الفنادق وجعله مراقباً بالثانوية وقد وفّر له الإقامة بها. ظل الأستاذ محدة محمد يعمل مراقبا ويدرس الحقوق، ويراجع محاضراته رفقة الأستاذ سعدي إلى أن حصل في سنة 1979 على الليسانس فالتحق مباشرة بقسم الدراسات العليا بعد أن أجرى مسابقة فاز فيها من الأوائل وصار معيدا بقسم الحقوق بجامعة قسنطينة، والتقى بالأستاذ مالكي محمد الأخضر الذي رافقه في مسيرة الحياة العلمية، وفي سنة 1983 ناقش الأستاذ محدة رسالة الماجستير في القانون موضوعها: ضمانات المشتبه فيه أثناء مرحلة التحريات الأولية بمعهد الحقوق جامعة قسنطينة وتحصل عليها بتقدير مشرف جدًا، وبعدها أقبل على التحصيل والتأليف خاصة في ميدان الشريعة الإسلامية التي وجد فيها ضالته حيث التآليف فيها ضعيفة والطلبة في حاجة إلى مراجع فانهمك في البحث وكان أول كتاب أصدره يتعلق بالزواج والطلاق.

وفي نهاية الثمانيات انتسب إلى المحاماة وفتح مكتبه في البداية بمدينة (المنيعة) ثم نقله إلى الوادي وصار فيما بعد محاميا معتمدا لدى المحكمة العليا ومجلس الدولة.

وفي سنة 1991 تحصل الأستاذ محدة على شهادة الدكتوراه في القانون الجنائي من معهد الحقوق بجامعة قسنطينة حول موضوع (ضمانات المتهم) بدرجة مشرف جدًا وكان عمره أنذاك لا يتجاوز السادسة والثلاثون وقد أصبح أستاذا محاضرا وأشرف على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه.

وفي سنة 1996 تمت ترقيته إلى أستاذ التعليم العالي فكان أستاذا مشاركا في عدّة جامعات وطنية، خاصة جامعات الشرق الجزائري الذي يعود إليه الفضل في تأسيس معاهد الحقوق بها.

في سنة 1998 انتقل من جامعة قسنطينة إلى جامعة بسكرة واستقر رفقة عائلته هناك فكان ينتقل أسبوعيا من بسكرة إلى الوادي وقد وجد الدكتور محدة أن المركز الجامعي ببسكرة أيامها يعاني من عدة مشاكل منها قلّة الأساتذة وندرة المراجع والوثائق فاضطلع بجلب الأساتذة من جامعة قسنطينة خاصة وقام بتسيير معهد الحقوق هناك إلى أن أوقفه على قدميه، كما قام بالتعاون مع مجموعة من الأساتذة وعلى رأسهم الدكتور الأستاذ سلاطنية بلقاسم رئيس جامعة بسكرة بفتح الدراسات العليا بقسم الحقوق في كل سنة. كما انتخب الأستاذ محدة رئيسا للمجلس العلمي لكلية الحقوق وأسس مخبرا للعلوم القانونية وظل يترأسه إلى يوم وفاته. كما تعاون كأستاذ مشارك في العديد من الجامعات الشرقية كجامعة سطيف وقسنطينة وباتنة وعنابة وأم البواقي والوادي.. الخ. وفي سنة 2000 أسس المركز الجامعي بالوادي.

زواجه: في منتصف السبعينات تزوج الأستاذ محدة من امرأة من قريته وعمره لا يتجاوز الثانية والعشرين وأنجب منها بنتا ولكنه لما التحق بجامعة قسنطينة طلّقها، وفي سنة 1980 تزوج ثانية من امرأة فاضلة شاركته مسيرة حياته العلمية والعملية وأنجب منها أربعة ذكور وهم (فتحي وعبد الباسط وزكريا وأمين) وبنتان وهما (نسرين وخولة). وقد حصل ابنه الأول فتحي على شهادة الماجستير في القانون وهو يعمل حاليا معيدا بقسم الحقوق بالمركز الجامعي بالوادي ويعمل محاميا بمكتب والده..

بين العلم والمال: من المعروف أن أساتذة الجامعة يتميزون بالخمول، والخنوع نظرا لأن طلب العلم يكفيهم عن طلب المال، ولكن الأستاذ محدة كان يطلب الاثنين معا، فهو يجمع بين العلم والمال، ولا يتوانى ولا يتكاسل في طلبهما، فالمال يوفر له الوسيلة التي يستعملها في طلب العلم، والعلم يوفر له الطريق السهل نحو كسب المال، وهكذا لا تجد إلا قلّة من الدكاترة الذين جمعوا الاثنين معا، ووفقوا في ذلك، إذ من العادة أن يطغى جانب على الآخر، فينحرف المرء نحو العلم أو نحو المال، ولكن الأستاذ محدة ظل وفيًا لهما معا. لقد كافح طويلا من أجل كسب المال، وضحى بكل غال وثمين، وأذكر أنه في منتصف الثمانينات أسس مشروعا صغيرا يتمثل في تربية الدجاج حيث كان لوالده -غوطا- من النخيل في خرجة "أميه ونسى" وفي وسطه أسس "مدجنة" فكان يجلب الكتاكيت من قسنطينة وسكيكدة بسيارته الخاصة الفاخرة التي كانت من نوع "المازدا"، ويأخذها إلى الوادي رغم مشقة المهمة، وتعبها، إلا أنه كان مغامرا لا يعرف المستحيل، ثم تطورت المدجنة لتصبح مزرعة ذات نخيل وأشجار، وصار محمد يجلب الدجاج بدل الفَلُوس. وكنت أنا والدكتور علي نصري كلما التقيناه بعد أن أصبح ثريا نوعا ما يبادره علي نصري بقوله لقد كنت "حمّه فلّوس" ثم صرت "حمّه دجاج" واليوم أصبحت "حمّه سردوك" فيضحك محدة كعادته ببراءة ويقول لنا: الله يسامحكم على تعليقكم..

الثروة:
كان محمد لا يعرف العياء أو التعب، إنه يذهب إلى فرنسا ليجلب أفخر السيارات وأرفعها ثمنا عن طريق رخص المجاهدين، ثم يذهب إلى تونس أو مصر ليجلب أحدث المراجع والكتب العلمية الجديدة، إنه يحاول التوفيق بين طلب العلم وطلب المال.

لقد فتح مكتب المحاماة في بداية حياته العملية بالمنيعة، فكان يسافر من قسنطينة إلى المنيعة أسبوعيا (800كلم)، ثم نقل مكتبه إلى الوادي فظل يسافر من قسنطينة إلى الوادي أسبوعيا (450كلم) لمدة تزيد عن العشر سنوات.

وفي السنة الجامعية 97/1998 تحوّل إلى جامعة بسكرة، فاستقر بعائلته هناك، وقد اشترى مسكنا متواضعا بحي المجاهدين، ولكنه ظل في حالة حل وترحال كل أسبوع، بين مكتب المحاماة بالوادي، وعمله كأستاذ ببسكرة (220كلم) حيث ظلت لعنة السفر تطارده إلى أن أخذته معها..

لقد استطاع محمد محدة وفي فترة وجيزة أن ينقذ نفسه وإخوته من الفقر، وأن يكوّن ثروة، إذ بالإضافة إلى المزرعة الأولى التي تضمُّ أكثر من ألفي نخلة، ها هو يحصل في إطار الدعم الفلاحي على أرض في مدخل قريته (أميه وأنسى) يسارا ويغرسها بآلاف النخيل، وأشجار الزيتون، كما استفاد من دعم فلاحي محترم، فكانت نتائج الاستثمار الزراعي مفيدة جدًا.. ..

بالإضافة إلى أن محدة لا يمتلك إلاَّ السيارات الحديثة الصنع خاصة المرسيدس، فهو في كل سنة تقريبا يسافر إلى فرنسا لاستيراد أحدث السيارات وأرفعها ثمنا، حتى أنه يملك الآن أكثر من خمس سيارات، ومن عادته أن لا يستعمل إلاّ السيارات الحديثة، نظرا لسفره المتواصل، وهي في أحيان كثيرة تغريه باستعمال السرعة، كما أنه يملك عدة عقارات ومساكن خاصة بقسنطينة وبسكرة والوادي.

مؤلفاته وأبحاثه: خاض الدكتور محمد محدة مجال التأليف والبحث العلمي، فكان نابغة خاصة في بحوثه العلمية المتعلقة بالشريعة الإسلامية، إذ أن تلك الدراسات صارت من أهم المراجع لطلاب العلم والثقافة، بل أصبحت المراجع الوحيدة المتوفرة لديهم.

لقد استطاع أن يخوض في عدة مجالات اسلامية منها: أصـول الفقه، والتركات والمواريث، والأحوال الشخصية كالأسرة، والطلاق، والـزواج، كما أنـه غامر صوب القانون الجنائي، فأعدّ أطروحة الماجستير والدكتوراه فيه، ورسم فيه طريقا معمقا للبحث العلمي، وسـوف أعـرض بعض مؤلفات الدكتور محمد محدة حسب ما توفره لي ذاكرتي من معلومات، وإذا نسيت أو غفلت، أو سهوت عن بعضها فالكمال لله وحده، ومن المعلوم أن الكتب التي أذكرها هنا كان قد أعدها لي الدكتور في كل مناسبة يصدر فيها كتابا، وهي كما يلي:

1. أول كتاب يصدره الدكتور محدة يتعلق بالزواج والطلاق، فقد كان يدرِّس في بداية الثمانينات مادة الأحوال الشخصية لطلبة الحقوق، واستطاع أن يجمع تلك المحاضرات في كتاب طبعه بدار البعث بقسنطينة سنة 1984، مع العلم أنه كان قد ركز فيه على قانون الأسـرة الـذي صدر حديثا في ذلك الوقت وهـو أول من تصدّى له بالشرح والتحليل.

2. خاض الدكتور محدة في مجال التركات والمواريث، فكان مرجعها الأساسي لأي باحث في العلم، بل أصبح منظرا إذ أنه أستطاع أن يضع فيها نظريات، وقسّم عمله فيها إلى جزئين، تمثل الجزء الأول من التركات والمواريث في الجانب النظري منها، واختص الجزء الثاني في الجانب العملي والمسائل المتعلقة بالتركات وهي كثيرة في المجتمع الجزائري، وقد أصدر الجزئين عن دار الشهاب بباتنة.

3. «شرح رسالة الستر» للشيخ الطاهر العبيدي وهو كتاب حققه وعلق عليه الدكتور محدة وطبع بدار البعث بقسنطينة سنة 1985، وهو عبارة عن شرح وتحليل وتعليق لمنظومة فقهية ألفها الشيخ الطاهر العبيدي أحد علماء وادي سوف في الخمسينات، وقد عثر عليها الدكتور محدة مخطوطا وقام بتحقيقها مستعينا بالعديد من كتب الفقه، وكان عمله هذا إحياء لتراث علماء منطقة وادي سوف الذين ظلّوا مغمورين ولا أحد يعرف عنهم شيئا..

4. علم أصول الفقه وهو كتاب ضخم تتجاوز صفحاته الست مائة وقد ألفه الدكتور وهو أهم مصادر الفقه ويبين أسسه وقواعده وعلى الرغم من صعوبة الخوض في المسائل الفقهية، إلا أنه تصدّى لها بالبحث والدراسة وألـف في أعقد المسائل وأكثرها اختلافا، وتناقضا..

5. كما ألف كتابا في مسائل الرحبية في شرح الفرائض وهي رسالة فقهية تصدى لها بالشرح والتحليل.

6. ضمانات المشتبه فيه أثناء التحريات الأولية في ثلاثة أجزاء أصدره سنة 1988 عن دار الهـدى بعين مليلة وهـو رسالة الماجستير التي أنجزها فقام بطبعها.

7. كما خاض في القانون الجنائي وقدّم أطروحة الدكتوراه في ضمانات المتهم..

8. وآخر كتاب قام بطبعه بمصر سنة 2005 يتناول جرائم الشيك.

وادي سوف في ذاكرة محدة: بعد أن مارس المحاماة، والأستاذية في الجامعة، ظل يحلم بالعودة إلى الأرض، إلى "الخُشَان".وقطع الغلّة، ورفع الرملة"، فكان له ما أراد، حيث روى عطشه الطفولي في مزارعه واستطاع أن يغرس آلاف النخيل ويشرف على ذلك بنفسه رغم مشاغله الكثيرة.

كما أنه كان يربي أبناءه على أعمال الزراعة، حتى أنهم كانوا يقضون عطلهم في خدمة الأرض بالمزرعة، وظل محدة يحمل وادي سوف في الـذاكرة على الرغم من إقامته بقسنطينة لمدة تزيد عن الربع قرن، ظل الحنين يجرفه إلى قريته الهادئة، إلى أن أصبحت القرية دائرة بفضل مجهوداته مع السلطات المحلية.

لقد استطاع أن ينقل الحياة السوفية إلى قسنطينة، المدينة العريقة في الحضارة، كان يسلك في حياته اليومية سلوكات السوافه الـذين لم يـتـأثـروا بثقافة المدينة، يرتدي القندورة السوفية، ويحتسي الشاي الذي يجلبه عادة من وادي سوف، وكانت سيارة المازدا التي يأتي بها من الوادي مملوءة بخيرات الأرض، من جزر وبصل إلى باذنجان وبطاطا وفلفل وحتى السفرجل، وكلها من منتوجات مزارعه..

لقد ظل محدة محافظا على مميزاته السوفية من دماثة الخلق، وكرم الضيافة، والصبر على المحن، ونصرة المظلوم، والتعاون..

كما كان يحافظ على صلواته في أوقاتها، ولا يتخلف عن صلاة الجماعة بالمسجد، وكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع طوال السنة اقتداء بنبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم..

و في منتصف الثمانينات عندما سمحت الحكومة بالحج عن طريق البرّ قام محدة رفقة أخيه علي ومجموعة من أقاربه بأداء مناسك الحج بواسطة السيارة، انطلاقا من وادي سوف مرورا بتونس وليبيا ومصر والأردن إلى غاية مكة المكرّمة.

كان محدة قد وضع قريته "أميه ونسى" في القلب، وعندما استقر به الحال بوادي سوف فتح مكتبه بعاصمة الولاية، لكنه لم يستقر بها، بل أنه بنى بيتا جميلا في قريته أشبه بالقصر الصغير تحيط به حديقة غنّاء، وظل يقطع المسافة يوميا بين مكتبه ومسكنه (25كلم)، وعندما يحين المساء تجده قد ارتدى قندورته، وافترش بساط الرمل الناعم بالقرب من النخلات الجميلات في بيته (بأميه ونسى) وقد وضع أمامه إبريق الشاي، وتنفس الهواء الطلق، ونثر أوراقـه فوق الرمال الصافية، وراح يقرأ أو يكتب بتلقائية وصفاء الذهنية، وهدوء الحياة القروية.

المركز الجامعي بالوادي: إذا كان هناك فضل لأحد في تأسيس المركز الجامعي بالوادي، فهو يعود بالتأكيد إلى الدكتور محمد محدة، الذي كان صاحب المبادرة رفقة بشير جديدي وبعض أعيان سوف .

فمحمد محدة الأستاذ بجامعة بسكرة والذي كان ينتقل أسبوعيا بين بسكرة والوادي هو الذي اقترح مع مجموعة من الاساتذة على مدير جامعة بسكرة أن يفتح في البداية ملحقة جامعية بالوادي تابعة لبسكرة ، فتمكن من ذلك وقد إفتتح بها قسم الحقوق سنة 1999 / 2000 ، وكان محدة هو صلة الوصل بين بسكرة والـوادي، وقـد عرض عليه مدير الجامعة أن يتولى إدارة الملحقة فرفض نظرا لانشغاله بالعديد من المهام الأخرى، ولكنه كان يسيّر الملحقة ويدعمها ماديا ومعنويا بل وحتى من جيبه الخاص .

وبعد أن صارت الملحقة مركزا جامعيا و تم تعيين الأستاذ بن عتوس على رأسه، ظل الدكتور محدة مواظبا على حل مشاكل المركز الجامعي بالوادي و على دعمه بكل ما يملك إلى أن أوقفه على رجليه، وكان لا يطلب مقابلا لذلك بل يقوم بالتدريس طوعا، و يسافر على حسابه لإقتناء الكتب والمراجع للطلاب، كما أنه يوفر لهم و سائل النقل.

كان محدة هو المسير الحقيقي، وهو صلة الربط بين جامعة بسكرة والمركز الجامعي بالوادي إلى أن تم تأسيسه، وأخيرا إستقل عن جامعة بسكرة وصار تابعا للوزارة مباشرة.

وفـاتـه :
في يوم الإثنين : 27 مارس 2006م، وهو متوجه من الـوادي إلى بسكرة في حدود الساعة الثامنة ليلا و على بعد : 80 كلم من الوادي ، إصطدم بقطيع من الجمال ، فصدم جملين أرداهما قتيلين ، وتوفي هو بعد أن تم نقله إلى مستشفى الوادي في حدود العاشرة ليلا، وتم دفنه في اليوم الموالي أي الثلاثاء : 28 مارس 2006 بعد صلاة العصر، وقد جاءت الوفود من كل مكان خاصة من جامعتي الوادي وبسكرة والكثير من الشخصيات الوطنية يتقدمهم النائب في البرلمان ورئيس مجموعة "ورود" : محمد البشير الجديدي، ورئيس جامعة بسكرة الدكتور الأستاذ : سلاطنية بلقاسم، ونوابه، بل أن جامعة بسكرة أرسلت حافلة من الطلبة و الأساتذة لتشييع جثمان الدكتور محدة إلى مثواه الأخير .

لقد عرفت قرية " أمية ونسى " يوما مشهودا ، فقد اكتظت بها السيارات من كل مكان ، و شهدت المقبرة المتواضعة اكتظاظا بشريا لم تعرفه في سابق عهدها ، و قد ألقى الدكتور : مالكي محمد الأخضر كلمة تأبين ، ذكر فيها بمناقب الفقيد وصفاته المتميزة وأخلاقه العالية كما ألقى الأستاذ : بالي العيد كلمة مؤثرة أبكت جميع الحاضرين.

نتمنى من العلي القدير أن يتغمده برحمته الواسعة، وأن يلهم عائلته وأبناءه الصبر والسلوان .

إنّا لله وإنّا إليه راجعون .